أنشودة البساطة

الدكتور عبد العزيز المقالح

كان أمل دنقل شاعر البساطة في زمن التعقيد والغموض، وأول ما يلفت الانتباه في قصائده البساطة الحادة المصقولة التي تتحول إلى أنشودة مفرطة التواضع. و«أنشودة البساطة» تعبير حديث أطلقه بين شباب الكتاب والشعراء الكاتب الفنان يحيى حقي، والبساطة عند ذلك الشيخ الوقور ـ كما فهمها جيل أمل دنقل ـ لا تعني التمرد على القواعد اللغوية أو الخروج على الأسس الفنية للكتابة، ولا تعني الرقة والتبسيط، إنما تعني تلقائية التناول أو عفوية التعبير، والابتعاد عن خشونة اللفظ والمعاني، وتحويل العمل الأدبي من شعر لا يفهم محتواه سوى نفر قليل من الكتّاب.. إلى أنشودة جماعية وإلى لغة فن ووجدان، ومن السهل جداً أن يتتبع المتلقي فضلاً عن الدارس تجربة أمل دنقل الشعرية، وأن يتبيّن ملامح القراءة في هذه التجربة، التي تختلف عن تجربة الآخرين من زملائه ومن الشعراء الذين سبقوه، وقد ظلت تجربته متميزة منذ البداية الصحيحة إلى أن توقفت مع الوفاة، وكانت بساطته في التناول تجعله يرى أن الفرار من المباشرة لا يعني الفرار من المحيط المباشر للواقع، ولا تعني الفرار من مواجهة العذاب الإنساني والخراب والدمار والتشويه، وهذا الموقف جعله لا يقيم كبير وزن لما يسمى بالألفاظ الشعرية، أو بالمعاني المعقّدة، وهو في نثره القليل الذي تضمنته مقابلاته المنشورة في الصحف والمجلات، لا يكف عن الهجوم السافر الحاد على كثير من شعراء القصيدة «المتجاوزة»، وهو يرى أن معظم التجاوز يقف عند دائرة اللغة وحدها وعند الشكل وحده وهو يعتقد أن ذلك الصنع لا يزيد عن كونه نوعاً من الهروب عن مواجهة الواقع، "ولأن فقدان الثقة عند الشاعر في تغيير هذا الواقع، قد أدى به إلى أنواع من استجلاب وسائل فنية في ظل حضارة مختلفة ومحاولة فرضها على المجتمع الثقافي ـ العربي، ومن هنا تحول

الشعر الحديث إلى شعر مثقفين، في حين أن وظيفته الأساسية هي في ارتباطه بالناس، وقد كان انتصار الشعر الجديد منذ البداية راجعاً إلى ارتباطه بالناس، وتجاوبهم بالتالي معه، وتخلّيهم عن الشكل القديم.. وما يؤدي إليه هذا التجاوز الحديث عن المطلقات.. ومن هنا فإن هذا التجاوز للواقع يحتاج إلى تجاوز للطرائق الفنية التي يتم بها التعبير عن هذا الواقع واستحداث طرائق بديلة واستجلاب لمذاهب فنية، أو لجوء إلى الإيهام بمحاولة تغيير الواقع أو الإيهام بالثورة عن طريق ثورة شكلية فقط.. الشعر لا يلقن أسراره العميقة ولا يضع ناره المقدسة إلا في النفوس الواجدة وفي القلوب البريئة من التطلعات المريضة» أي تكون الثورة على مستوى الشكل فقط [انظر مجلة فصول عن قضايا الشعر المعاصر المجلد الأول العدد الرابع يوليو ١٩٨١.

ومهما يكن نصيب وجهة النظر هذه من الخطأ أو الصواب، فإن وراءها موقف شاعر كبير يدرك أنه خارج من أحزان أمة كبيرة أسيرة إخطبوط هائل من المعاناة والمشاكل ولا بد من أن تحس بالخطر الذي يتهددها، ومهمة الشاعر بالذات أن يوصل هذا الإحساس إلى وعي الأمة وأن لا تتحول قصائده إلى مفردات قاموسية مجردة عن أي معنى أو إلى معان مطلقة تسعى إلى تخدير الوعي وإماتة الحواس بدلاً من إيقاظها، وفي مرحلة الهوان كالمرحلة التي نعيشها الآن لا بد أن يتخلى الشاعر عن الوقوف في دائرة الأحلام الذاتية وقبل أن يحاول التحرر من القوالب الميتة أو التي يراها كذلك عليه أن يتجنب الوقوع في ما هو أخطر من هذه القوالب كالشكلية وتزييف الواقع، تلك هي بساطة أمل دنقل التي جعلت من شعره صوتاً عميقاً وبسيطاً، ومن المهم قبل ذلك وبعد ذلك أن نعلم أنه هو نفسه قد كان أنشودة من البساطة والتواضع.

تذكرت محنة الشعراء.. وأنا أعيش ذكريات محنة صديقي الشاعر أمل دنقل فقد عانى بالإضافة إلى محنة الفقر والتشرد وإلى محنة القمع والإرهاب محنة التكفير، نعم محنة التكفير، وكانت قصيدته «كلمات سبارتكوس الأخيرة» واحدة من القصائد التي وضعها «زعماء محاكم التفتيش» على مشرحة التكفير،

والقصيدة تدعو إلى التمرد ضد الطغيان وتمجد دور العبد سبارتكوس الذي امتشق السيف في وجه العبودية في وجه روما العابثة بإنسانية الإنسان ومطلع القصيدة وهو الأكثر إثارة يقول:

المجد للشيطان.. معبود الرياح

من قال (لا) في وجه من قالوا (نعم)

من علم الإنسان تمزيق العدم

من قال (لا).. فلم يمت ،

وظل روحاً أبدية الألم!

المجد هنا ، ليس للشيطان (إبليس) ولكنه للشيطان (سبارتكوس) ذلك العبد الشجاع الذي اشتاقت نفسه للحرية فقال (لا) في وجه (القيصر) وكانت النتيجة أن اسمه ظل على كل لسان وظلت روحه الأبدية الألم تزرع الشجاعة في نفوس العبيد وتدفع بهم إلى الصفوف الأولى من المواجهة ، وقد فهم صغار العقول في محاكم التفتيش المعاصرة أن الشاعر يمجد إبليس وأنه بذلك قد كفر ، وان دمه قد صار حلالاً ، وقد حاول صغار العقول هؤلاء أن يصلوا بصرخاتهم الحاقدة إلى (أهل الحل والعقد) إلا أن الصرخات ضاعت في ارض مصر الواسعة الأرجاء ، وظلت تتردد همساً في دهاليز الكراهية إلى أن رحل الشاعر عن عالم الحقد والطغيان وأخذه الله إلى جواره الرحيم الكريم.

لقد كتب الشاعر قصيدته في الاسكندرية وفي شارع الاسكندر الأكبر ، وهو يتنكر الجموع الفقيرة الغفيرة ، وهي تسير في الشوارع محنية الظهور مثقلة الأعناق كقطيع الأغنام ، لا صوت يرتفع بكلمة (لا) الكلمة السائدة والشائعة هي (نعم) مصحوبة بالنسبة المعروفة (٩٩,٩٩).

obeikandl.com

تذكر الشاعر كل ذلك فكتب قصيدته التي حاول فيها أن يعلّم الجماهير العربية المضطهدة أن تقول (لا) حتى وإن كانت العاقبة لا تختلف كثيراً عن عاقبة ذلك الثائر المعلق في مشنقة على مدخل المدينة الظالمة:

معلق أنا على مشانق الصباح

وجبهتي ـ بالموت ـ محنية

لأنني لم أحنها.. حية

* * * * *

obeikandl.com